العُجْمَةُ





تأليف

فريد صلاح الهاشمي

Feriduddin AYDIN

ORCID ID: 0000-0002-6440-6734

البريد الألكتروني للمؤلّف

feriduddin@gmail.com

دار العِبَر للطباعة والنشر

Al-Ibar Publishing

إسطنبوال – 2023م

العُجْمَةُ

العُجْمَةُ: هي الهُجْنَةُ في النطقِ، والعيبُ والقُبحُ في التعبير؛ ومنه يقال: في كلاَمِهِ هُجْنةٌ، أي لحنٌ وركاكةٌ ولُكْنَةٌ... والعُجْمَةُ: ظاهرةٌ تتمثَّلُ عمومًا في العجزِ عنِ النطقِ بالعربيةِ. وفيما يلي تعريفٌ علمِيٌّ بمفهوم العُجْمةِ، إقتبستُهُ من موسوعتي التي ألَّفْتُها بين أعوام (**1998–2018**م.)، وسَمّيْتُهَا: "المعجم الموسوعي الفريد لألفاظِ اللغة العربية"، تتكوّن من اثنى عشر مجلَّدًا، وهي غير مطبوعةٍ. وهذا نَصُّ التعريف:

"لفظُ العُجْمَةِ مُشْتَقٌّ: من عَجُمَ – يَعْجُمُ عُجْمَةً فهو أَعْجَمُ، (مُؤَنَثُهُ: عَجْمَاءُ)، وَالجَمْعُ: عُجْمٌ.. والعُجْمُ: خِلاَفُ الْعُرْبِ. وَ"عُجْمَةٌ"، عَلَى وَزْنِ: فُعْلَةٍ": صِيغَةٌ قِيَاسِيَّةٌ مِنْ أَبْنِيَةِ مَصَادِرِ الثُّلاَثِيِّ الْمُجَرَّدِ. وَالْعُجْمَةُ بِضَمِّ الْعَيْنِ: الإِبْهَامُ، وَعَدَمُ الإِفْصَاحِ، وَاللُّكْنَةُ فِي اللِّسَانِ. وَعَجُمَ بِالضَّمِّ عُجْمَةً فَهُوَ أَعْجَمُ وَالْمَرْأَةُ عَجْمَاءُ وَهُوَ أَعْجَمِيٌّ بِالْأَلِفِ عَلَى النِّسْبَةِ لِلتَّوْكِيدِ، أَيْ غَيْرُ فَصِيحٍ وَإِنْ كَانَ عَرَبِيًّا. يُقَالُ: فُلاَنٌ كَانَ فِي لِسَانِهِ لُكْنَةٌ. أَيْ لَمْ يَكُنْ فَصِيحًا، كَمَا وَرَدَت فِي قَامُوسِ تَرَاجُمِ الأَعْلاَمِ لِلزِّرِكْلِي ضِمْنَ تَرْجَمَةِ مُحَمَّدٍ زَاهِدِ الْكَوْثَرِيِّ، يَقُولُ: "كَانَ يُجِيدُ الْعَرَبِيَّةَ وَالتُّرْكِيَّةَ وَالْفَارِسِيَّةَ وَالْجَرْكَسِيبَّةَ وَفِي نُطْقِهِ بِالْعَرَبِيَّةِ لُكْنَةٌ خَفِيفَةٌ". بَيْنَمَا كَانَ الْكَوْثَرِيُّ مِمَّنْ طَالَ بَاعُهُ فِي شَتَّى الْعُلُومِ الإِسْلاَمِيَّةِ، وَمُؤَلَّفَاتُهُ وَمَقَالاَتُهُ شَاهِدَةٌ عَلَى مَهَارَتِهِ وَعُلُوِّ كَعْبِهِ فِي الْعَرَبِيَّةِ، وَأَمَّا لُكْنَتُهُ اللِّسَانِيَّةُ فَلَمْ تَكُنْ إِلاَّ لأَنَّهُ كَانَ مُسْتَعْرَبًا، لَمْ يَتَكَلَّمْ عَنْ سَلِيقَةٍ، وَإِنَّمَا تَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ بَعْدَ لُغَتِهِ الْمَحَلِّيَّةِ كَمَا سَيَأْتِي شَرْحُ هَذِهِ الْمُشْكِلَةِ فِيمَا يَلِي.

فَالْعُجْمَةُ إِذَنْ صِفَةٌ تُطْلَقُ بِمَعْنَى الرَّكَاكَةِ فِي التَّعْبِيرِ الشَّفَهِيّ وَعَدَمِ الإِفْصَاحِ لأَسْبَابٍ، إلاَّ أَنَّ كُلَّ كَلاَمٍ غَيْرِ مُتَّصِفٍ بِالْفَصَاحَةِ لَمْ يَعُدَّهُ اللُّغَوِيُّونَ وَلاَ الْبَلاَغِيُّونَ الْعَرَبَ مِنَ الْعُجْمَةِ، بَلْ وَصَفُوهَا بِالرَّكَاكَةِ والتَّعْقِيدِ وَالْغُمُوضِ فَحَسْبُ، وَهَذَا شَيْءٌ مِنَ الْغَرَابَةِ بِمَكَانٍ. فَكَأَنَّهُمْ تَحَاشَوْا بِذَلِكَ عَنْ إِنْزَالِ الطَّبَقَةِ الْعَامِّيَّةِ مِنَ الْعَرَبِ مَنْزِلَةَ الأَعَاجِمِ لِعَدَمِ إِتْقَانِهِمْ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ الْفُصْحَى، تَنْزِيهًا لَهُم، وَفِي ذَلِكَ شَيْءٌ مِنَ التَّشْوِيهِ لِلْحَقِيقَةِ. لأَنَّ الأَكْثَرِيَّةَ السَّاحِقَةَ مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ لاَ يُتْقِنُونَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ الْفُصْحِى، فإِنَّهُمْ أَعَاجِمُ لاَ مَحَالَةَ، وَأَخْلاَطٌ وَحُثَالَةٌ مِنَ الْبَشَرِ، لاَ حَظَّ لَهُمْ مِنَ الْوَعْيِ والْمَعْرِفَةِ بِحَقَائِقِ الْكَوْنِ وَالْحَيَاةِ. وَمَا أَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ جَهْلُهُمْ بِحَقَائِقِ هَذِهِ اللُّغَةِ وَمَكَانَتِهَا، وَعَظَمَتِهَا، وَقَدْرِهَا كَلُغَةِ الْوَحِي، وَدَوْرِهَا فِي بِنَاءِ أُسُسِ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ، وَفَتْحِ آفَاقِ التَّفْكِيرِ والإِبْدَاعِ وَالتَّطْوِير الْمُؤَدِّي إِلَى تَوْفِيرِ وَسَائِلِ التَّنَوُّرِ والإِنْفِتَاحِ وَالتَّقَدُّمِ والازْدِهَار، مِمَّا فَرَّقَ جَمْعَهُمْ وَشَتَّتَ شَمْلَهُمْ وَتَرَكَهُمْ عَلَى أَشَدِّ حَالَةٍ مِنَ التَّخَلُّفِ. إِنَّ الْعُجْمَةَ ظَاهِرَةٌ لُغَوِيَّةٌ تَتَمَثَّلُ فِي أَشْكَالٍ مِنَ الْفَسَادِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ دُونَ غَيْرِهَا. لأَنَّ سَائِرَ اللُّغَاتِ عَجَمِيَّةٌ أَصْلاً، وَالتَّكَلُّمُ بِهَا عُجْمَةٌ وَالْفَصَاحَةُ فِيهَا مَجَازٌ، لاَ اسْتِقْرَارَ وَلاَ بَقَاءَ لَهَا؛ تَتَغَيَّرُ طَبِيعَتُهَا بَيْنَ مَرْحَلَةٍ زَمَنِيَّةٍ وَأُخْرَى، تَتَرَنَّحُ أَمَامَ أَيّ عَاصِفَةٍ سِيَاسِيَّةٍ أَوْ اجْتِمَاعِيَّةٍ أَوْ حَادِثَةٍ مُدَمِّرَةٍ، فَتَتَفَرَّقُ إِلَى لَهَجَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ أَوْ حَتَّى إِلَى لُغَاتٍ مُتَبَاعِدَةٍ مَعَ الزَّمَانِ. أَمَّا الْعَرَبِيَّةُ فَلاَ سَبِيلُ لِلْفَسَادِ إِلَى أَصْلِهَا، وَلَوْ اسْتَعْجَمَ أَبْنَاؤُهَا قَاطِبَةً. فَإِنَّ أَصْلَهَا كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا. وَهِيَ لُغَةٌ شَرِيفَةٌ رَصِينَةٌ تَتَمَتَّعُ بِحِمَى الْقُرْآنِ وَضَمَانِهِ الْمَنِيعِ والسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الْمُطَهَّرَةِ. وَإِنَّمَا الْفَسَادُ يَنْحَصِرُ فِي نِطَاقِ عُجْمَةِ الإِنْسَانِ فَحَسْبُ، الَّذِي لاَ يَكَادُ يَجْهَلُ قَدْرَ حَاجَتِهِ إِلَى هَذِهِ الْوَسِيلَةِ الْعَظِيمَةِ وَمَدَى حِرْمَانِهِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ بِسَبَبِ هَذَا الْجَهْلِ.

تَظْهَرُ الْعُجْمَةُ وَتَسُودُ عَلَى اللِّسَانِ فِي صُورَتَيْنِ مُتَعَاكِسَتَيْنِ، إِحْدَاهُمَا: الاسْتِعْرَابُ بَعْدَ نَشْأَةٍ عَجَمِيَّةٍ مِثْل نَشْأَةِ الشَّيْخِ الْكَوْثَرِيّ كَمَا مَرَّ آنِفًا، وَهِيَ أَنْ يُولَدَ الشَّخْصُ وَيَتَرَبَّى فِي بِيئَةٍ غَيْرِ عَرَبِيَّةٍ مُثَقَّفَةٍ، فَيَتَعَلَّمَ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ بَعْدَ لُغَتِهِ الْمَحَلِّيَّةِ. وَهَذِهِ كَارِثَةٌ مِنْ كَوَارِثِ الْقَدَرِ الإِلَهِيِّ كَمَنْ يُولَدُ مَشْلُولَ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَاءِهِ أَوْ مَبْتُورَهُ لاَ حِيلَةَ لَهُ فِي مُعَالَجَتِهِ وَلاَ اسْتِبْدَالِهِ، كَذَلِكَ تَبْقَى آثَارُ الْعُجْمَةِ فِيهِ مَهْمَا طَالَ بَاعُهُ فِي عُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ. يَجُوزُ أَنْ تُسَمَّيَ هَذِهِ الْحَالَةُ بِالْعُجْمَةِ

الطَّبِيعِيَّةِ، تَكُونُ آثَارُهَا مُتَأَصِّلَةً فِي الشَّخْصِ الْمُسْتَعْرَبِ فَلاَ يَكَادُ يَخْلُصُ لِسَانُهُ مِنَ اللُّكْنَةِ أَبَدًا، كالْمُسْتَشْرِقِينَ والطَّلَبَةِ وَالْمُوظَّفِينَ الأَجَانِبِ الْوَافِدِينَ إِلَى الْبِلاَدِ الْعَرَبِيَّةِ لِلدِّرَاسَةِ.

والنَّوْعُ الثَّانِي مِنَ الْعُجْمَةِ: هُوَ التَّعَجُّمُ. وَهُوَ أَنْ يُولَدَ الشَّخْصُ فِي بِيئَةٍ عَرَبِيَّةٍ غَيْرِ مُثَقَّفَةٍ، ثُمَّ يَتَعَلَّمَ اللَّهْجَةَ الْفُصْحَى عَنْ طَرِيقِ الدِّرَاسَةِ والتَّعْلِيمِ. وَهَذَا أَشْبَهُ بِطِفْلٍ يُولَدُ وَبِهِ شَيْءٌ مِنَ مَرَضٍ قَابِلٍ لِلْعِلاَجِ، يَبْرَأُ بَعْدَ فَتْرَةٍ مِنَ الرِّعَايَةِ الصِّحِّيَةِ وَالْمُدَاوَاةِ الطِّبِّيَّةِ.

لِلْعُجْمَةِ آثَارٌ سلْبِيَّةٌ عَلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ؛ تَحُولُ دُونَ جَمَالِهَا الأَدَبِيِّ وَرَوْعَتِهَا الْبَلاَغِيَّةِ، هَذَا مِنَ الْوَجْهِ الْعَامّ. أَمَّا عُجْمَةُ الشَّخْصِ الْمُسْتَعْرَبِ خَاصَّةً، فَإِنَّهَا تَأْتِي بِسَلْبِيَّاتٍ خَطِيرَةٍ فِي أَعْمَالِ التَّرْجَمَةِ وَالتَّأْلِيفِ بِالتَّحْدِيدِ. لأَنَّ الرَّجُلَ الْمُسْتَعْرَبَ لاَ يَتَأَتَّى لَهُ النُّفُوذُ إِلَى أعْمَاقِ الْمُصْطَلَحَاتِ الْعَلْمِيَّةِ وَالْفَنِّيَّةِ، وَالإِحَاطَةُ بِدَقَائِقِ مَكْنُونَاتِهَا. وَقَدْ يَتَوَرَّطُ فِي تَفْسِيرَاتٍ غَرِيبَةٍ وَتَأْوِيلاَتٍ شَاذَّةٍ لِهَذِهِ الْمُصْطَلَحَاتِ نَتِيجَةَ قُصُورِهِ وَعَجْزِهِ عَنْ فَهْمِهَا فَهْمًا دَقِيقًا. لأَنَّ مَعْرِفَتَهُ لِلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مَقْصُورَةٌ عَلَى حَوَاسِّهِ الْخَمْسِ وَقُدُرَاتِهِ الذِّهْنِيَّةِ بَعْدَ سِنّ الطُّفُولَةِ بِخِلاَفِ الإِنْسَانِ الْعَرَبِيّ الَّذِي يَمْتَصُّهَا عَادَةً مَعَ لَبَنِ أَمِّهِ وَيَخْتَزِنُهَا فِي أَعْمَاقِ ضَمِيرِهِ وَوُجْدَانِهِ وَخَلاَيَاهُ... فَتَتَمَخَّضُ عِبَارَاتُ الشَّخْصِ الْمُسْتَعْرَبِ عَنْ آثَار هَذَا الْعَجْزِ بِأَخْطَاءٍ تَتَفَاوَتُ فِي عُيُوبِهَا وَخُطُورَتِهَا، فَتُؤَدِّي بَعْضُهَا إِلَى تَشْوِيهِ الْحَقَائِقِ وَإِرْبَاكِ الْقَارِئِ فَضْلاً عَمَّا تَسُودُهَا مِنَ الْغُمُوضِ وَالرَّكَاكَةِ وَسُوءِ التَّأْلِيفِ.

وَمِنْ سَلْبِيَّاتِ الْعُجْمَةِ: أَنَّهَا تَغُرُّ صَاحِبَهَا بِالتَّسَاهُلِ فِي تَنَاوُلِ الْمَهَامّ الْعِلْمِيَّةِ، إِذْ تَفُوتُهُ أُمُورٌ كَثِيرَةٌ لاَ يَكَادُ يَنْتَبِهُ إِلَيْهَا، يَدْرُسُ مُوْضُوعًا وَهُوَ بِمَعْزِلٍ عَنِ الْكَفَاءَةِ الْعِلْمِيَّةِ لاسْتِيعَابِهِ، قَاصِرُ النَّظَرِ عَنْ تَعَدُّدِ الصِّلَةِ بَيْنَ الْقَضِيَّةِ وَاعْتِبَارَاتِهَا الْكَمِّيَّةِ والْكَيْفِيَّةِ، مُتَرَدِّدٌ فِي مَدِّ الرَّوَابِطِ بَيْنَ مُخْتَلِفِ جوَانِبِهَا، وَالْخُلُوصِ مِنْهَا بِنَتِيجَةٍ تَشْرَحُ الصَّدْرَ. ذَلِكَ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْتَعْرَبِينَ الَّذِينَ يَدْرُسُونَ اللُغَةَ الْعَرَبِيَّةَ مُدَّةً غَيْرَ قَصِيرَةٍ يَنْسَوْنَ أَنَّهُمْ اشْتَغَلُوا فِي كُلِّ هَذِهِ الْمُدَّةِ بِإِحْصَاءَ قَوَاعِدِ الصَّرْفِ والنَّحْوِ والْبَلاَغَةِ فَحَسْبُ، وَالْتَهَوْا بِهَذِهِ الْقَوَانِينِ اللُّغَوِيَّةِ الْبَحْتَةِ إِلْتِهَاءً مُطْبَقًا مُنْصَرِفِينَ عَنْ تَطْبِيقِهَا فِي الْحِوَارِ وَالْمُحَادَثَةِ، فَحُرِمُوا مِنْ طَلاَقَةِ اللِّسَانِ وَفَصَاحَةِ الْبَيَانِ فِي

نِهَايَةِ الْمَطَافِ. إِنَّ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلاَءِ تَتَلَوَّثُ سَرِيرَتُهُمْ بِقَدْرٍ كَبِيرٍ مِنَ الأَمْرَاضِ النَّفْسِيَّةِ، فَيَبْغُضُونَ كُلَّ مَنْ يَفُوقُهُمْ فَصَاحَةً وَبَلاَغَةً وَبَيَانًا. لأَنَّهُمْ يَجِدُونَ أَنْفُسَهُمْ غَيْرَ قَادِرِينَ عَلَى الْحَدِيثِ بِانْسِجَامٍ وَسَلاَسَةٍ وَهُمْ قَدْ افْتَدَوْا بِأَحْلَى أَيَّامِ شَبَابِهِمْ وَسَهَرُوا عَلَى حِفْظِ قَوَانِينِ اللُّغَةِ وَمُتُونِ عُلُومِ الآلَةِ، وَقَدْ خَرَجُوا مُفْلِسِينَ مِنْهَا، لأَنَّ سَعْيَهُمْ لَمْ يُثْمِرْ بِمَا يَجْعَلُهُمْ نَاجِحِينَ فِي مَيْدَانِ اللُّغَةِ خَاصَّةً عِنْدَ الْمُكَالَمَةِ وَالْحِوَارِ وَتَبَادُلِ الْحَدِيثِ مَعَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالثَّقَافَةِ. وَمِمَّا لاَ شَكَّ فِيهِ؛ أَنَّ عَدَدًا مِنْهُمْ يَمْتَلِئُونَ غَيْظًا بِدَافِعِ هَذِهِ النَّفْسِ الْمَهْزُومَةِ فَيَلْجَئُونَ إِلَى الانْتِقَامِ مِنْ كُلِّ مَنْ يَتَوَقَّفُ عَلَى عُيُوبِهِمِ اللِّسَانِيَّةِ وَقُصُورِهِمِ اللُّغَوِيَّةِ وَعَجْزِهِمْ عَنِ التَّعْبِيرِ الأَمْثَلِ، فَيَنْتَقِمُونَ مِنَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَمِنَ الْمُصْطَلَحَاتِ الْعِلْمِيَّةِ بِطَرِيقِ التَّشْوِيهِ وَالتَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ وَيَنْتَقِمُونَ مِنَ كُلِّ فَصِيحِ اللِّسَانِ بِفِرْيَةٍ يَحُطُّ مِنْ شَأْنِهِ. هَذَا، وَالتَّارِيخُ لاَ يَنْسَى مَا وَقَعَ مِنَ الْفَسَادِ فِي الْمَنْهَجِ الدِّرَاسِيِّ عَلَى يَدِ الْمُسْتَعْرَبِينَ الْفُرْسِ وَالأَتْرَاكِ وَالْهُنُودِ بِسَبَبِ مُؤَلَّفَاتِهِمْ الْعَقِيمَةِ وَعِبَارَاتِهِمِ الرَّكِيكَةِ الْمُعَقَّدَةِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الانْتِقَامِ.

وَرَدَ فِي مَقَالٍ جَدِيرٍ بِالاهْتِمَامِ جِدًّا صَدَرَتْ بِقَلَمِ الدّكْتُور عَبْدِ اللهِ بْنِ عُوَيْقِلٍ السّلمي تَحْتَ عُنْوَان: "الْمُتُونُ وَالشُّرُوحُ وَالْحَوَاشِي"، وَهُوَ يَتَطَرَّقُ إِلَى آثَارِ الْعُجْمَةِ فِيهَا، يَقُولُ فِي مَقْطَعٍ مِنْهَا: "الْمُتُونُ لاَ يُسْتَفَادُ مِنْهَا كَثِيرًا فِي مَجَالِ التَّطْبِيقَاتِ النَّحْوِيَّةِ؛ لأَنَّ مَا فِيهَا مِنْ قَوَاعِدَ لاَ يُنَاسِبُ قَابِلِيَّاتِ الطُّلاَّبِ بِصُورَةٍ عِلْمِيَّةٍ؛ وَلأَنَّهَا تُرَاوِحُ – أَحْيَانًا – بَيْنَ الزِّيَادَةِ فِي بَعْضِ الأَبْوَابِ وَالنَّقْصِ فِي أَبْوَابٍ أُخْرَى، فَأَسَالِيبُهَا وَمُحْتَوَيَاتُهَا وَمَنَاهِجُ تَصْنِيفِهَا لاَ تَتَّفِقُ مَعَ الْحَقَائِقِ التَّرْبَوِيَّةِ الْحَدِيثَةِ، وَالْمَنَاهِجِ التَّعْلِيمِيَّةِ الْعَصْرِيَّةِ. أَمَّا الشُّرُوحُ وَالْحَوَاشِي وَالتَّقْرِيرَاتُ، فَهِيَ تُكْثِرُ مِنَ التَّعَرُّضِ لِقَضَايَا الْمَنْطِقِ وَالْكَلاَمِ وَالتَّعْلِيلِ الْفَلْسَفِيِّ, وَفِيهَا مِنَ الْحُدُودِ وَالْقُيُودِ وَالاحْتِرَازَاتِ مَا لاَ يَتَلاَءَمُ مَعَ الْمُسْتَوَى الْعَقْلِيِّ لِلطُّلاَّبِ الْمُتَلَقِّينَ الَّذِينَ صُنِّفَتْ فِي الأَصْلِ لَهُمْ. هَذِهِ الْمَنْظُومَةُ التَّأْلِيفِيَّةُ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُضِيفَ إِلَى مَبَاحِثِ النَّحْوِ جَدِيدًا يَجْعَلُهُ مُزْدَهِرًا نَامِيًا، وَإِنَّمَا حَوَتْ قَوَاعِدَ مُتَحَجِّرَةً وَأَصْبَحَ هَمُّ الْعُلَمَاءِ تَلْخِيصَ هَذِهِ الْقَوَاعِدِ ثُمَّ شَرْحَ التَّلْخِيصِ، ثُمَّ التَّحْشِيَةَ عَلَى الشَّرْحِ، ثُمَّ التَّقْرِيرَ عَلَى الْحَاشِيَةِ... لِذَلِكَ فَإِنَّ النَّاظِرَ لاَ يَرَى إِلاَّ كَلاَمًا مُعَادًا مُكَرَّرًا فِي هَذِهِ الْمَنْظُومَةِ لاَ يُنَمِّي ذَوْقًا وَلاَ يُرَبِّي مَلَكَةً. هَذِهِ هِيَ الْعُيُوبُ الْمَنْسُوبَةُ أَوْ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تُنْسَبَ إِلَى هَذِهِ الظَّاهِرَةِ التَّأْلِيفِيَّةِ فِي النَّحْوِ وَغَيْرِهِ مِنَ

الْعُلُومِ، وَهِيَ الظَّاهِرَةُ الَّتِي تَرْسُمُ صُورَةً عِلْمِيَّةً وَثَقَافِيَّةً وَاضِحَةً لِعَصْرِ الْمَمَالِيكِ وَعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّينَ، وَقَدْ رَكَّزَتْ هَذِهِ الْعُيُوبُ عَلَى جَعْلِ هَذَيْنِ الْعَصْرَيْنِ عَصْرَيْ تَخَلُّفٍ وَانْحِطَاطٍ، وَعَلَى أَنَّ هَذَا اللَّوْنَ مِنَ التَّصَانِيفِ دَلِيلٌ عَلَى ضَعْفِ الاهْتِمَامِ الْعِلْمِيِّ عَامَّةً، وَعَلَى الْجَهْلِ لَدَى حُكَّامِ هَذِهِ الْقُرُونِ جَمِيعًا مِمَّا انْعَكَسَ عَلَى الْمُؤَلِّفِينَ، فَجَاءَتْ تَصَانِيفُهُمْ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بِصِيَاغَةٍ تُوهِمُ أَنَّهُمْ أَتَوْا بِجَدِيدٍ وَوَاقِعُ الأَمْرِ غَيْرُ ذَلِكَ، إِذْ كَانَتْ مُؤَلَّفَاتُهُمْ قَلَّمَا تَسْلَمُ مِنْ غُمُوضِ الْعِبَارَةِ أَوْ خَطَأِ الْفِكْرَةِ، أَوْ مُخَالَفَةِ الاصْطِلاَحِ السَّلِيمِ، أَوْ غَلَطِ الرِّوَايَةِ الْمَعْزُوَّةِ، وَهِيَ – فِي مُجْمَلِهَا – كَمَا يَقُولُ هَؤُلاَءِ الْمُنْتَقِدُونَ صَرَفَتْ عَنِ اللُّبِّ إِلَى الْقُشُورِ، كَمَا أَنَّهَا – فِي نِهَايَةِ الأَمْرِ – سَلَبَتْ مِنَ النَّحْوِ بَهْجَتَهُ وَرُوَاءَهُ. أَمَّا مُصَنِّفُو هَذِهِ الْكُتُبِ فَقَدْ قَالُوا فِيهِمْ أَيْضًا إِنَّهُمْ مُتَّصِفُونَ بِغَلَبَةِ الْعُجْمَةِ عَلَيْهِمْ، وَقِلَّةِ إِلْمَامِ كَثِيرٍ مِنْهُمْ بِالأَسَالِيبِ الْعَرَبِيَّةِ الْقَدِيمَةِ مِمَّا جَعَلَ أَقْلاَمَهُمْ وَأَقْلاَمَ مَنْ تَشَبَّهَ بِهِمْ تَتَبَارَى وَتَتَنَافَسُ فِي إِقَامَةِ الصِّيَغِ الْخَفِيَّةِ، وَفِي إِقْحَامِ مُصْطَلَحَاتِ الْمَنْطِقِ وَالأَلْفَاظِ الْفَلْسَفِيَّةِ، وَفِي التَّلاَعُبِ بِالأَلْفَاظِ وَالإِيغَالِ فِي الإِيجَازِ، وَالْحِرْصِ عَلَى الرَّمْزِ وَالإِلْغَازِ، وَفِي الْجُنُوحِ إِلَى الاسْتِطْرَادِ أَوِ الإِيجَازِ بِلاَ دَاعٍ، حَتَّى بَاتَتْ مُصَنَّفَاتُهُمْ لَيْسَ فَقِيرَةً فِي الأَسَالِيبِ الأَدَبِيَّةِ فَحَسْبُ، بَلْ تَقَعُ فِيهَا أَيْضًا أَشْيَاءُ مِنَ الْمُخَالَفَةِ لِلْقَوَاعِدِ النَّحْوِيَّةِ أَوِ الصَّرْفِيَّةِ..."

أَمَّا التَّعَجُّمُ، وَهُوَ عَكْسُ الاسْتِعْرَابِ، فَإِنَّ آثَارَهُ السَّلْبِيَّةَ عَلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ أَشَدُّ مِنْ مُحَاوَلاَتِ الْمُسْتَشْرِقِينَ وَخَبْطِ الْمُؤَلِّفِينَ الأَعَاجِمِ. لأَنَّ الطِّفْلَ الْعَرَبِيَّ الَّذِي يَتَرَبَّى فِي بِيئَةٍ غَيْرِ مُثَقَّفَةٍ يَعْتَادُ عَلَى اسْتِخْدَامِ مَا يُسَمَّى بِاللَّهْجَةِ الْعَامِّيَّةِ أَوِ الدَّارِجَةِ، فَيَتَحَوَّلُ إِلَى إِنْسَانٍ أَعْجَمِيٍّ. وَلاَ شَكَّ فِي أَنَّ لِلْعَامِّيَّةِ عَوَاقِبُ هَدَّامَةٌ لِلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ. لأَنَّ الإِنْسَانَ الْعَرَبِيَّ الْمُتَعَجِّمَ، دَوْرُهُ فِي تَدْمِيرِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ كَدَوْرِ الْعَدُوِّ الْمُنْدَسِّ فِي صُفُوفِ الْمُجْتَمَعِ. وَهُوَ أَخْطَرُ مِنَ الْعَدُوِّ الَّذِي يَتَرَبَّصُ الدَّوَائِرَ بِهَا مِنَ الْخَارِجِ، وَإِنْ كَانَ فِي هَذَا التَّشْبِيهِ السَّاذِجِ خَلَلٌ قَدْ يَتَسَلَّلُ مِنْ ثَغْرِهِ الْمُغْرِضُونَ الْمُعْتَرِضُونَ لِمُجَرَّدِ التَّفْنِيدِ حِقْدًا أَوْ جَهْلاً: بِأَنَّ الْعَرَبِيَّ الْعَامِّيَّ لاَ يَجُوزُ وَصْفُهُ بِالْعَدَاوَةِ لِمُجْتَمَعِهِ وَلُغَتِهِ، بِذَرِيعَةِ جَهْلِهِ، وَلَكِنْ يَجِبُ عَلَيْنَا جَمِيعًا أَلاَّ نَتَنَاسَى بِأَنَّ الْجَهْلَ فِي ذَاتِهِ عَدُوٌّ لَدُودٌ لِكُلِّ حَقِيقَةٍ، فَإِذَا نَشَأَ الإِنْسَانُ فِي أَحْضَانِهِ شَبَّ عَلَى الْعَدَاوَةِ لِكُلِّ حَقِيقَةٍ تَبَعًا لِحَاضِنِهِ كَأَبِي جَهْلٍ!. لاَ يَكَادُ يَفْطَنُ إِلَيْهَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُتَعَمِّدًا فِي جَهْلِهِ أَوْ عَدَاوَتِهِ.

الإنْسَانُ الْعَرَبِيُّ الْيَوْمَ يَجْهَلُ الأسْلُوبَ الأَصِيلَ لاسْتِخْدَامِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مَهْمَا كَانَ مُثَقَّفًا. فَلَيْسَ مِنَ الْفِرْيَةِ إِذَنْ وَصْفُ الْعَرَبِ بِالْعَجَمِيَّةِ (إِلاَّ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ!). فَهُمْ لاَ شَكَّ طَائِفَةٌ مِنَ الأَعَاجِمِ الْمُتَعَجِّمِينَ، وَذَلِكَ بِالدَّلِيلِ الْعِلْمِيِّ الْقَاطِعِ، أَدْنَاهُ: كَلِمَاتٌ يَسِيرَةٌ لأَعْرَابِ الْعَهْدِ الْجَاهِلِيِّ، فَضْلاً عَمَّا تَضُمُّهُ مُجَلَّدَاتٌ ضَخْمَةٌ مِنْ أَحَادِيثِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَلاَمِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم. نَنْقُلُ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ كَلِمَاتٍ وَجِيزَةً لِحَاضِنَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَلِيمَةِ السَّعْدِيَّةِ، ثُمَّ لِنُقَارِنْهَا مَعَ كَلاَمِ فُحُولِ أُدَبَاءِ الْعَرَبِ فِي هَذَا الْعَصْرِ، لِنَقِفَ عَلَى الْفَرْقِ الْكَبِيرِ الَّذِي تَتَمَيَّزُ بِهَا كَلِمَاتُ هَذِهِ الأَعْرَابِيَّةِ مِنَ الْفَصَاحَةِ والاعْتِدَالِ وَالرَّوْعَةِ والْجَمَالِ فِي اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى إِذَا قِسْنَاهَا مَعَ كَلاَمِ أُدَبَاءِ عَصْرِنَا. وَهَذِهِ كَلِمَاتُهَا، تَقُولُ:

"خَرَجْتُ عَلَى أتَانٍ لِي قَمْرَاءَ، وَمعَنَا شَارِفٌ (أَي نَاقَةٌ مُسِنَّةٌ) لَنَا، وَاللهِ مَا تَبِضُّ (أَيْ مَا تَدْمَعُ) بِقَطْرَةٍ، وَمَا نَنَامُ لَيْلَنَا أجْمَعَ مِنْ صَبِيِّنَا الَّذِي مَعَنَا، مِنْ بُكَائِهِ مِنَ الْجُوعِ. مَا فِي ثَدْيِي مَا يُغْنِيه، وَمَا فِي شَارِفِنَا مَا يُغْذِيهِ، وَلَكِنْ كُنَّا نَرْجُو الْغَيْثَ وَالْفَرَجَ، فَخَرَجْتُ عَلَى أَتَانِي تِلْكَ، فَلَقَدْ أذَمَّتْ بِالرَّكْبِ حَتَّى شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، ضَعْفًا وَعَجَفًا، حَتَّى قَدِمْنَا مَكَّةَ نَلْتَمِسُ الرُّضَعَاءَ، فَمَا مِنَّا امْرَأَةٌ إِلاَّ وَقَدْ عُرِضَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَأْبَاهُ، إِذَا قِيلَ لَهَا: إِنَّهُ يَتِيمٌ، وَذَلِكَ أَنَّا كُنَّا نَرْجَو الْمَعْرُوفَ مِنْ أَبِي الصَّبِيِّ، فَكُنَّا نَقُولُ: يَتِيمٌ! وَمَا عَسَى أَنْ تَصْنَعَ أُمُّهُ وَجَدُّهُ، فَكُنَّا نَكْرَهُهُ لِذَلِكَ، فَمَا بَقِيَتْ امْرَأَةٌ قَدِمَتْ مَعِيَ إِلاَّ أَخَذَتْ رَضِيعًا غَيْرِي. فَلَمَّا أَجْمَعْنَا الانْطِلاَقَ قُلْتُ لِصَاحِبِي: وَاللهِ، إِنِّي لأَكْرَهُ أَنْ أَرْجِعَ مِنْ بَيْنِ صَوَاحِبِي وَلَمْ آخُذْ رَضِيعًا، وَاللهِ لأَذْهَبَنَّ إِلَى ذَلِكَ الْيَتِيمِ فَلآخُذَنَّهُ. قَالَ: لاَ عَلَيْكِ أَنْ تَفْعَلِي، عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا فِيهِ بَرَكَةً. قَالَتْ: فَذَهَبْتُ إِلَيْهِ وَأَخَذْتُهُ، وَمَا حَمَلَنِي عَلَى أَخْذِهِ إِلاَّ أَنِّي لَمْ أَجِدْ غَيْرَهُ. قَالَتْ: فَلَمَّا أَخَذْتُهُ رَجَعْتُ بِهِ إِلَى رَحْلِي. فَلَمَّا وَضَعْتُهُ فِي حِجْرِي أَقْبَلَ عَلَيْهِ ثَدْيَايَ بِمَا شَاءَ مِنْ لَبَنٍ، فَشَرِبَ حَتَّى رَوَى، وَشَرِبَ مَعَهُ أَخُوهُ حَتَّى رَوَى، ثُمَّ نَامَا، وَمَا كُنَّا نَنَامُ مَعَهُ قَبْلَ ذَلِكَ. وَقَامَ زَوْجِي إِلَى شَارِفِنَا تِلْكَ، فَإِذَا هِيَ حَافِلٌ، فَحَلَبَ مِنْهَا مَا شَرِبَ وَشَرِبْتُ مَعَهُ حَتَّى انْتَهَيْنَا رَيًّا وَشَبَعًا، فَبِتْنَا بِخَيْرِ لَيْلَةٍ. قَالَتْ: يَقُولُ صَاحِبِي حِينَ أَصْبَحْنَا: تَعْلَمِي وَاللهِ يَا حَلِيمَةُ، لَقَدْ أَخَذْتِ نَسَمَةً مُبَارَكَةً. قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَاللهِ إِنِّي لأَرْجُو ذَلِكَ.

قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجْنَا وَرَكِبْتُ أَنَا أَتَانِي، وَحَمَلْتُهُ عَلَيْهَا مَعِيَ. فَوَاللهِ لَقَطَعْتُ بِالرَّكْبِ مَا لاَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ حُمُرِهِمْ، حَتَّى إِنَّ صَوَاحِبِي لَيَقُلْنَ لِي: يَا ابْنَةَ أَبِي ذُؤَيْبٍ، وَيْحَكِ! أَرْبِعِي عَلَيْنَا، أَلَيْسَتْ هَذِهِ أَتَانُكِ الَّتِي كُنْتِ خَرَجْتِ عَلَيْهَا؟ فَأَقُولُ لَهُنَّ: بَلَى وَاللهِ، إِنَّهَا لَهِيَ هِيَ، فَيَقُلْنَ: وَاللهِ إِنَّ لَهَا شَأْنًا. قَالَتْ: ثُمَّ قَدِمْنَا مَنَازِلَنَا مِنْ بِلاَدِ بَنِي سَعْدٍ، وَمَا أَعْلَمُ أَرْضًا مِنْ أَرْضِ اللهِ أَجْدَبَ مِنْهَا، فَكَانَتْ غَنَمِي تَرُوحُ عَلَيَّ حِينَ قَدِمْنَا بِهِ مَعَنَا شِبَاعًا لُبَّنًا، فَنَحْلُبُ وَنَشْرَبُ، وَمَا يَحْلُبُ إِنْسَانٌ قَطْرَةَ لَبَنٍ، وَلاَ يَجِدْهَا فِي ضَرْعٍ، حَتَّى كَانَ الْحَاضِرُونَ مِنْ قَوْمِنَا يَقُولُونَ لِرِعْيَانِهِمْ: وَيْلَكُمْ، اسْرَحُوا حَيْثُ يَسْرَحُ رَاعِي بِنْتِ أَبِي ذُؤَيْبٍ، فَتَرُوحُ أَغْنَامُهُمْ جِيَاعًا مَا تَبِضُّ بِقَطْرَةِ لَبَنٍ، وَتَرُوحُ غَنَمِي شِبَاعًا لُبَّنًا. فَلَمْ نَزَلْ نَتَعَرَّفُ مِنَ اللهِ الزِّيَادَةَ وَالْخَيْرَ حَتَّى مَضَتْ سَنَتَاهُ وَفَصَلْتُهُ."

فَأَيْنَ كَلاَمُ الْعَرَبِ الْيَوْمَ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْفَصِيحَةِ الرَّنَّانَةِ الْخَالِصَةِ مِنَ الْمُبَالَغَةِ وَالرَّكَاكَةِ وَالْغُمُوضِ وَالتَّعْقِيدِ! لَقَدْ كَانَتْ حَلِيمَةُ أُمِّيَّةً مَعَ أَغْلَبِ الظَّنِ، لاَ تَقْرَأُ وَلاَ تَكْتُبُ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ عَلَى هَذَا الْقَدْرِ مِنْ فَصَاحَةِ اللِّسَانِ. وَلاَ يُسْتَبْعَدُ أَنْ يَكُونَ أَكْثَرُ مُعَاصِرِيهَا رِجَالاً وَنِسَاءً مُتَمَيِّزِينَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ الَّتِي تُعَدُّ فَرِيدَةً فِي عَصْرِنَا. فَتَبْدُو إِذَنْ الشُّقَّةُ الْبَعِيدَةُ بَيْنَ أَهْلِ ذَلِكَ الْعَصْرِ وَبَيْنَ أَبْنَاءِ عَصْرِنَا مِنَ الْعَرَبِ مِنْ حَيْثُ مُسْتَوَى الإِتْقَانِ وَالْمَهَارَةِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ. وَهَذَا يُبَرِّرُ نِهَائِيًّا إِطْلاَقَ صِفَةِ الْعُجْمَةِ عَلَى الْعَرَبِ الْمُعَاصِرِينَ أَجْمَعِينَ، كَمَا يُبَرْهِنُ عَلَى مَدَى خُطُورَةِ هَذَا الْجِيلِ مِنَ الْعَرَبِ فِي تَدْمِيرِ لُغَةِ الْقُرْآنِ فَضْلاً عَنْ مُحَاوَلاَتِ الْمُسْتَشْرِقِينَ الدُّعَاةِ إِلَى الْعَامِّيَّةِ. إِذَنْ لَنْ نُبَالِغَ أَنْ نَقُولَ فِي النِّهَايَةِ: إِنَّ الْعَامِّيَّةَ إِصْرَارٌ عَلَى التَعجُّمِ وَانْسِلاَخٌ مِنَ الْفِطْرَةِ لاَ مَحَالَةَ، وَهَذَا حَرْبٌ عَلَى الْعَرَبِيَّةِ وَالْعُرُوبَةِ وَالإِسْلاَمِ!" [1]

***

[1] فريد صلاح الهاشمي، المعجم الموسوعي الفريد لألفاظ اللغة العربية، (باب العين)، مادّةُ: "عُجْمَةٌ". الموسوعةُ غير مطبوعةٍ.

يجوز أنْ نَقْسِمَ العُجْمَةَ إلى ضربين:

1) عُجْمَةٌ عامّةٌ؛ يَتَّصِفُ بها جميعُ الناسِ الذين يجهلون اللغةَ العربيةَ، وهي تشمَلُ كافَّةَ الجماعاتِ والمُجتَمَعاتِ غيرِ الناطقةِ بالعربيَّةِ. كلُّ هذا المَعْشَرُ البَشَرِيُّ الغفيرُ مُتَلَبِّسٌ بِالعُجْمَةِ طَبْعًا وجِبِلِّيَّةً، ومتصفٌ بها توفيقِيًّا، هؤلاءِ كُلُّهُمْ أعْجامٌ، عُجْمَتُهُم ناشِئَةٌ من الفِطرَةِ.

2) عُجْمَةٌ خاصَّةٌ: وهي صفةٌ تشْمَلُ الأعجامَ الذينَ بذلوا جُهدًا لِيَتَعَلَّمُوا اللغةَ العربِيَّةَ، لكنَّهم لم يُفلِحُوا في تحقيقِ مُبْتَغَاهُمْ، فظَّلَتْ معرفَتُهُمْ دونَ مستوى الإتقانِ. هؤلاءِ يختلفون اختلافًا كبيرًا في حدودِ مُسْتَوَيَاتِهِم ومَقاديرِ حُظُوظِهِمْ من العربية. كلُّ واحِدٍ منهم تظهر في كلامِهِ آثارُ العُجمَةِ من لحَنٍ، أو لُكْنَةٍ، أو عَجْزٍ في النُّطقِ والإنشاءِ...

منهم مَنْ قضى سنين في حفظِ قواعد الصرف والنحو داخِلَ المحيط العربيّ؛ فهذا قد يحظى قدرًا محدودًا من المعرفةِ بالعربية وليس متمكِّنًا منها؛ يقرأ النصوصَ العربيةَ ولا يلحنُ، ويكادُ يفهم مَضْمُونَها بِكمالِهِ، لكنَّهُ لا يقدرُ على النُّطقَ بطلاقَةٍ، ولاَ يُجِيدُ الإنشاءَ بفصاحةٍ، وإذا حاولَ أنْ يتحدَّثَ، كانت في نُطقِهِ غرابةٌ، ولُكْنَةٌ أجنبِيَّةٌ. فهذا محضُ قارئٍ، مُتَّصِفٌ بالعُجْمَةِ، كالطلبةِ الوافدين إلى البلاد العربية الخرِّجِين في جامعاتِهَا من الأتراك والأكرادِ وبقية الطوائف العجميةِ.

ومنهم مَنْ درَسَ أيضًا في البلادِ العربيةِ فترةً، غيرَ أنه تَلَقَّى دُرُوسَهُ على غيرِ أهلِ الإختصاصِ. فهذا يكون قد حظِيَ شيْئًا من العربيةِ على قدرِ جهودِهِ. ولكنّهُ غيرُ ناجحٍ في نُطْقِهِ، ويكادُ يجهل الإنشاءَ تمامًا.

ومنهم مَنْ درَسَ في غير البلاد العربية، وتلقى دروسَهُ بطريق الترجمةِ على بعضِ ضُعفاءِ العلمِ، كما هو الحال في المدارس الشعبية–الدينية في تركيا. فإنَّ الخرّجينَ من هذه المدارِسِ المتهالكةِ، والكُلِّيَّات الدينية التابعة للجامعات التركية، يكادُ كلُّهُم يجهلون النطقَ والإنشاءَ بالعربية، كمعظمِ ملالي الأكرادِ، وخواجوات الأتراك، والأكادِيميّين الخرّيجين من الكليات الدينية. إنَّ هؤلاءِ يحفظون قواعد الصرف والنحو على مدى عشر سنين تقريبًا، يستطيعون أن يقرؤوا النصوصَ الدينيةَ بِالعربيةِ، معظمهم لا يَلْحَنُون في قرائتِهم، أمَّا إذا كان النصُّ مدوَّنًا في موضوعٍ غيرِ دينيّ، فإنهم قلَّما يفهمون مَضْمُونَه، هؤلاءِ عُجْمَتُهُمْ أشدُّ مِمّنْ سَبَقَ وَصْفُهُم. وهكذا تَتَفَاوَتُ مُسْتَوَيَاتُ الأعجامِ الذين تنطبقُ عليهم العُجْمَةُ الخاصَّةُ.

إنَّ العُجمَةَ العامَّة والخاصَّةَ صفتانِ طبيعيَّتانِ لِغيرِ العربِ، لأنَّهم وُلِدُوا ونشؤوا وتربَّوْا في بِيئَاتٍ لا يتحدَّثُ فيها أحدٌ باللغة العربية، بل لكلٍ منهم لغةٌ خاصَّةٌ يتحدَّثُ بها أفرادُ بِيئَتِهِ ومُجتَمَعِهِ، فتعلَّمَها منهم وتطبَّعَتْ قريحتُهُ علي أسلوبهم في النطقِ والإفادةِ. أمَّا الأعرابُ ومَنْ في حُكمِهم من الطوائف العامّيَّةِ في المُجْتَمَعَاتِ العرِبيَّةِ، فإنَّ عُجْمَتَهُم غيرُ طبيعيَّةٍ، بل هي قُصُورٌ، وعَيبٌ شنيعٌ مُرْتَكَبٌ إلى حدودِ الخيانةِ والجنايةِ، لأنهم وُلِدُوا ونشؤوا وتربّوْا في بِيئَاتٍ يتحدَّثُ فيها قِلَّةٌ مُثَقَّفَةٌ باللُّغة العربية الفصحى، ناطقةٌ بها وفقًا لقواعدها اللغويةِ. فكان في وُسع هؤلاءِ المُسْتَعْجَمِين أنْ يبذلوا جهودَهم في تعلُّمِ اللَّهجة الفصيحةِ والتطبُّعِ عليها بطريقِ الدراسةِ، وبالاستعانة بأهل المهارةِ فيها، وبممارستِها في الحوارِ والمحادثةِ. إنَّ هؤلاءِ الذين يَدَّعُونَ أنهم عربٌ، ولا يُتْقِنونَ اللغةَ العربيةَ الفصيحةَ، بل يتحاورون باللَّهْجَةِ العامّيَّةِ، فإنَّهُمْ يُعَدُّونَ أيضًا من الأعجامِ، وهم حُثَالَةُ العربِ وَغَوْغَاؤُهُمْ. والطامَّةُ الكُبرى أنهم يُمَثِّلُونَ الأكثريةَ في الأمة العربية!

وبهذا الإعتبارِ تُعَدُّ العُجْمَةُ عَطْبًا طبيعيًّا يحولُ بين العَجَمِيّ (الأصلِيّ) وبين اللُّغةِ العربيةِ لأسبابٍ عاديةٍ، ولكنَّ الأمرَ لا يقتصرُ على هذا القدرِ. بل العُجمَةُ قد تكون في بعض الأحيانِ عَقَبَةً خطيرةً أمامَ الشخصِ المُسْلِمِ على وجه الخصوص. لأنَّ الإنسانَ لا يكادُ

يستوعب معانيَ الآيات القرآنية والأحاديثِ النبوية، ولا يفهم مقاصدَها وما يَكْمُنُ فيها من حِكَمٍ ودلالاتٍ ذاتِ وجوهٍ متعدّدةٍ، إلاَّ إذا كان ذا نَصيبٍ متوسّطٍ من اللغةِ العربيةِ. فهذا الذي لا يلحنُ في قراءتِهِ ويحسُنُ الإنشاءَ، بحيث يجوز أن يُطلَقَ عليه صِفَةُ (المُثَقَّفِ)، سواء كان عربيًّا أو مُستعربًا، فإنه ليس من الضرورة أن يكون هو عالمًا محيطًا بدقائق علوم العربية. بل يكفيه أنَّ يتلفّظَ الكلمةَ بمُقتضى أصلِها في القاموسِ العربيِّ، وأنْ لا يُخطِئَ في النُّطقِ بالحركة الإعرابيةِ التي في آخرِها. وهذا يعني: أنْ يَرْفَعَ ما يجبُ رفعُهُ، ويَنْصِبَ ما يجبُ نَصبُهُ، ويَجُرَّ ما يجبُ جرُّهُ. فهذا حَسْبُهُ أنْ لا يُعَدَّ من أبناءِ العُجمةِ.

***

لقد بلغ الإهمالُ للُّغَةِ العربيةِ في أوساطِ عامَّةِ العربِ إلى حدٍّ يُثيرُ الفزعَ في نفسِ كلِّ مَنْ يُتقِنُها ويشعر بالحمية والمحبة لها، عربيًّا كان أو مُسْتَعْرَبًا، فضلاً عن المثقَّفين والمتخصِّصين في علومِها، لأنها وعاءُ الحكمةِ، وترجمانُ الوحي الإلهي، والحصنُ المنيع الذي استطاعَ أن يحافظَ على تراثِ الدِّينِ الإسلاميّ الحنيفِ وثقافَتِهِ، وقِيَمِهِ الساميةِ، ومعالِمِ حَضَارَتِهِ، وشخصيةِ مُنْتَسِبِيهِ...

تواجِهُ لغةُ الضادِ في أيَّامِنا تحدّياتٍ وتهديداتٍ خطيرةٍ في الداخل، على لسانِ أبنائها بالذات، بالإضافةِ إلى ما يتربّصُ بها الأعداءُ من الخارجِ، في الوقت الذي تسود الفوضى على المناهج التعليمية في البلاد العربية. يقول الكاتب اليمنيُّ أمذيب صالح أحمد في مقال له: "اللهجاتُ العامّيَّةُ تقوم تدريجيًّا بتغييرِ نُطقِ الكلماتِ وتحطيمِ قواعدِ الفصحى ونحوِها، وقتلِ الملكةِ اللغويةِ، وتعطيلِ جهازِ النطقِ، حتى تَصِلَ إلى مرحلةٍ من الرطانةِ، قابلةٍ للافتراس اللُّغَويّ الأفرنجيّ من اللغات السائدة"[2]

---

[2] صحيفة الأيام الألكترونية اليمنية؛ **07** ديسمبر **2023**م. تاريخ نشر المقال: **19** مايو **2008**م. الرابط:
صحيفة الأيام – خطورة استعمال اللهجات العامية على اللغة العربية الفصحى(alayyam.info)

لا شكَّ أنَّ طائفةً من أصحاب الحمية من العلماءِ والمثقفين يُنَبِّهون بتأكيدٍ بالغٍ على خطورةِ اللهجاتِ العاميَّةِ ومَدَى آثارِها الهدَّامةِ على العربية الفصيحةِ، ويعبرون عن أسفهم وقَلَقِهِمْ حيالَ المخاطر التي تَتَعَرَّضُ لها لغةُ الضاد، وتُثير العُجْمَةَ في أنحاءِ الوطن العربي.

أمَّا المخاطِرُ التي تُهَدِّدُ اللُّغَةَ العربيَّةَ وتثير العُجْمَةَ، فهي كثيرةٌ، قد نَبَّهَ عليها جمهورٌ من الكتَّابِ والباحثين والعلماءِ في كُتُبِهِمْ، ومقالاتِهِمْ، وخُطَبِهِم، ومُنتَدَيَاتِهِم... لكنه ثَمَّ خطرٌ أكبرُ وأشدُّ تأثيرًا في إفسادِ لغة القرآنِ، وقطع شرايين الحياةِ عنها بِطُرُقٍ غيرِ مباشرَةٍ؛ ألاَ وهي الديانةُ الْمُسْلُمَانِيَّةُ (**Müslümanlik**).

المُسْلُمَانِيَّةُ التركيَّةُ **Müslümanlik**: هي حركةٌ دينيَّةٌ محليَّةٌ وقوميَّةٌ تم إنشاؤها تحت تأثير الثقافة الفارسية في القرن الثاني عشر الميلادي بطريق اقتباسِ عناصرَ من مختلفِ الأديانِ وَمَزْجِهَا مع القِيَمِ الإسلامية. أكثرُ عناصرها مُقْتَبَسَةٌ من الديانة الشامانية والبوذية.

لقد كانت مجتمعاتٌ خليطةٌ من الأتراك والطوخار والصُّغد والدَّيالِمَةِ في منطقة تركستان لكل منها معتقدات وطقوس مختلفة، فلما دخل الإسلامُ إلى هذه المنطقةِ ولم يكن هناك مَنْ يُرْشِدُهُمْ إلى الالتزام بمبدأِ (التوقيفيةِ) في تلك الظروفِ الوعرةِ على خلفيةِ الحروبِ وما أسفر عنها من الفوضى في الحياة الاجتماعية، بالإضافة إلى جهلِهِمْ باللغةِ العربيةِ، تداخلتْ أشكالٌ من المعتقداتِ فتكوَّنَتْ منها دِيانةٌ غريبةٌ، وقد غلبتْ عليها صورةٌ من الإسلام فسُمّيت "الْمُسْلُمَانِيَّةَ **Müslümanlik**"واعتقدتْ عامَّةُ الناسِ أنَّه الدِّينُ الذي جاءَ به العربُ. ثم انتشر العلمُ في بعضِ انحاءِ هذه المنطقة كمدينة بُخارى وسمرقند، فاهتم العلماءُ الذين نبغوا هناك بإصلاحِ هذهِ الديانةِ وتصفيتِها من آثارِ الدياناتِ الوثنيةِ شيئًا فشيئًا إلى أن بدأ يظهرُ طابعُ الإسلامِ في هيكلِها. إلاَّ أنَّ هذه المحاولاتِ الإصلاحيةَ لم تنجح إلى مُستوَى الكمالِ رغم الجهودِ التي بذلها العلماءُ، بل ظلّتْ فيها معالمُ الوثنيةِ وعلى رأسِها القبوريةُ. على أيّ حالٍ، لم نُخطِئْ لو قُلنا أنَّ الخلفيةَ التاريخيةَ للمُسْلُمَانِيَّةِ التركيَّةِ **Müslümanlik** غيرُ واضحةٍ إلى حدٍ كبيرٍ. يحاول عددٌ من الباحثين المحترِفين اليومَ

ليكشفوا العَتَمَةَ عن المسارِ الدِّينيِّ للأتراك، منذ بداية تعرُّفِهِمْ على الإسلام إلى الماضي القريب.[3]

ومن جانبٍ آخر؛ يُفترَضُ أنَّ الجيوشُ الأمويةَ لما احتلَّتْ بِلادَ التُّرْكِ بقيادةِ قتيبَةَ بنِ مُسْلِمٍ الباهليِّ، وعملتْ فيهم السيفَ بوحشِيَّةٍ، وتعرَّضَ الأتراكُ لِمَذَابِحَ رهيبةٍ على أيديهم، وأُحرِقَتْ أصنامُهُمْ ودُمِّرَتْ معابِدُهم، وأُجْبِروا على اعْتناقِ الإسلامِ قهرًا، وذلك ما بين أعوام (**707–715**م.)، قاموا باختلاقِ هذه الديانةِ، وسَمَّوها الْمُسْلُمَانِيَّةَ (**Müslümanlik**)، على سبيل الإنتقامِ، وكراهيةً للعربِ ودينهم. إلاَّ أنهم صنعوا غلافًا زائفًا لهذه الديانة بطريق المزج بين تعاليم الإسلام ومعتقداتِهِمْ الوثنيةِ، فجمعوا بين طقوس الهندوكية وبين مناسك الإسلام؛ كالصلاة، والصوم، والحج، والنوافل، وتلاوة القرآنِ، إلى غير ذلك... وأنشؤوا عديدًا من الطرائق الصوفيَّةِ وهي تيارات باطنيةٌ خطيرةٌ، ومن أشدِّهَا تدميرًا لأركان الدين الحنيفِ: الطريقةُ النَّقْشَبَنْدِيَّةُ! وهي القاعدةُ الأساسيةُ التي تَرْتَكِزُ عليها الْمُسْلُمَانِيَّةَ.

إنَّ الْمُسْلُمَانِيِّينَ أيضًا يهتمّونَ باللغةِ العربية كما سبقت الإشارةُ إليه، إلاَّ أنهم قد اختاروا لأنفسِهم طريقًا خاصًّا في تعليمِها وتدريسِها. لهم مدارِسُ شعبيةٌ–دينيةٌ منتشرةٌ في أنحاءِ تركيا. لكنَّهم يقتصرون على تحفيظِ قواعِدِ الصرفِ والنحوِ فحسبُ. ويستخدمون الترجمَةَ في التدريس، لا يكلِّمُ المدرّسُ تلاميذَهُ باللغةِ العربيةِ إطلاقًا، ولا يَطْلُبُ منهم أنْ يتحدَّثوا بالعربية، ولا يُكَلِّفُ أحدًا منهم أنْ يُجرِّبَ الكتابَةَ والإنشاءَ... فالْمُدَرِّسُ التركيُّ يحاضِرُ باللغةِ التركيةِ، والْمُدَرِّسُ الكردِيُّ يحاضِرُ باللغةِ الكرديةِ. وهذه الطريقةُ الوعرةُ التي يتبنَّاها نظامُ المدرسةِ عمدًا، لا تسمحُ للطالبِ بطبيعةِ الحالِ أنْ يستخدمَ العربية في حديثه وحوارِهِ.

---

[3] مقتَبَسٌ من الكتاب الموسوم: "الدِّينُ الذِي ارْتَضَاهُ اللهُ أَهُوَ الإِسْلاَمُ أَمِ الْمُسْلُمَانِيَّةُ" لمؤلفِ هذهِ المقالةِ: فريد صلاح الهاشمي، المعروف باسمه المحلي **Feriduddin AYDIN** في تركيا. الكتاب لا يزال غير مطبوعٍ.

يلاحَظُ أنَّ الْمُسْلُمَانِيِّينَ يتعمّدون بهذه الطريقة الماكرةِ أن يقطعوا سبيلَ لغةِ الضادِ حتى لا تطغى على لغتِهِمْ فلا تنتشرَ في رُبُوعِ مجتَمَعِهِمْ، كما قطعوا السبيلَ على الإسلام منذ قرون حتى لا يخسروا الْمُسْلُمَانِيَّةَ (Müslümanlik)، فداموا عليها إلى يومنا هذا. وقد أشار إلى هذه المؤامرة الأديبُ المصرِيُّ أحمد حسن الزّيّات في كلماتٍ له وهذا نصها:

"فلمّا أدالَ اللهُ بَنِي عُثْمَانَ من الْمَمَالِيكِ، أصبحتِ الخِلافةُ: عُثمَانِيَّةً لا عَبَّاسِيَّةً؛ وصارتْ عَاصِمَةُ الإسلامِ: القُسطَنْطِنِيَّةَ لا القاهِرَةَ؛ واللُّغَةُ الرسمِيَّةُ: التُّرْكِيَّةَ لا العربِيَّةَ... فَفشَا في اللغَةِ الدَّخِلُ، وزاحَمَتْها العامّيَّةُ والتُّرْكِيَّةُ في الدَّوَاوينِ، وذهبَتْ أسالِيبُهَا من النَّظْمِ والنَّثْرِ، وتَمَكَّنَ الذُّلُّ من النفوسِ فَخَمِدَتْ القرائِحُ، ونَضَبَ مَعِينُ العلْمِ، واطمأنَّتِ الكُتُبُ في الخزائِنِ، فلم يُزعِجها إلاَّ اشْتِعَالُ الأرَضَةِ في صَفَحَتِهَا، وضَرَبَ الجَهْلُ على أبصار الشَّرْقِيِّين فَعَمُوا..."[4]

***

يُفتَرَضُ أنَّ بدايةَ العبثِ باللغةِ العربيةِ كانتْ على لسان الأعجام الذين انضموا إلى الأمة في عواقب فتوحات الصحابة رضي الله عنهم. ذلك أنَّ الحركاتِ الجهاديةَ التي خاضوا فيها أسفرتْ عن ظاهرة الأسرِ، فكانت كلُّ معركةٍ تنتهي بالقبضِ على آلافٍ من الأسرى، يُجْلَبُون إلى أرض الإسلامِ، ويُوَزَّعُونَ على المجاهدين بالتمليكِ، فيُضرَبُ عليهم الرِّقُّ وَفقًا لأحكامِ الشريعةِ. وهؤلاءِ الأسرى كانوا يختلِطونَ في صفوفِ المجتمعِ الإسلامِيِّ ويتعايشونَ معهم، بينما كانت لغاتُهُم وثقافاتُهُم مُختَلِفَةً، وهم يتبادلون الحديث مع السُّكَّانِ الأصلِيّين الذين كانوا عرَبًا أقحاحًا، فتأثّرَتْ اللغةُ العربيةُ هكذا باللغات الأجنبةِ لأولِّ مرَّةٍ. إلاَّ أنَّ آثارَها على العربية لم تكن مُخِلَّةً بنظامها اللغويّ في عهد الصحابة والتابعين.

[4] أحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي، الطبعة السادسة والعشرون، دار الثقافة، بيروت–لبنان، بلا تاريخ.

نلاحظ أن جماعةً من العلماءِ قد ركّزوا اهتمامهم على تأليف كتبٍ قيّمةٍ في قواعد اللغة وأدَبِهَا على مدى ثلاثة قرون من بداية عصر التابعين رضوانُ الله عليهم. فكانت جهودُهم ومؤلَّفاتُهم سدًّا منعتْ تسرُّبَ الدخيلِ إلى العربية، فحافظتْ على أصالتِهَا، وحَمَتْهَا من التهجين في المحيط العربي إلى أواخر العصر الثالث من العهد العباسي. فلما زالت هيبةُ الخلفاءِ وتحكَّمَ الوزراءُ الأعجامُ في رقابهم، تزعزعتْ أركانُ العربيةِ، واضطرب نظامُها، وتعرَّضت ألفاظُها للتحريفِ، فتغيَّرَتْ أصواتُ حروفِها، وتفرَّقتْ اللغةُ إلى لهجاتٍ عامِّيَّةٍ هجينةٍ خالية من جمال الفصاحةِ، وأصبحتْ رُكَامًا من ألفاظٍ مضطربةٍ جُوفٍ لا ضبطَ لها في القاموسِ والمصادر العلمية واللغويةِ، فاستعجمَ العربُ مع الزمان عدا نُخْبَةٍ من المثقفين والعلماء. ولما اتَّسَعَتْ رِقْعةُ الإسلامِ وتكوَّنت دُوَيْلاَتٌ للأعجامِ خارجةٌ عن نطاقِ دولة الخلافةِ، وجَرَتْ علاقاتٌ سياسيةٌ وتجارية بينها، والتقى التجارُ والحِرَفِيُّونَ بأمثالهم من العربِ في أسواقِ المدن العربية وجرت بينهم اتصالاتٌ كثيفةٌ، ازدادت زحمةُ اللغةِ الفارسيةِ والتركيةِ بخاصّةٍ على اللغة العربية، فما لبثَ حتى فشتْ العامِّيَّةُ فَدَحَرَتِ الْفُصْحَى من الساحةِ، وحَبَسَتْها في دُورِ العلمِ، ومنتدياتِ العلماءِ، والمؤسساتِ الرسميةِ، فلم يتداولْها إلاَّ طبقةٌ مثقّفةٌ فحسب.

إن الشعوب التي تدَّعِي العُرُوبَةَ في أيَّامِنَا، قد استعجمتْ تمامًا وتحولتْ إلى أقوامٍ أجنبيةٍ نائيةٍ عن روحِ العُرُوبِيَّةِ التي صَنَعَهَا القرآنُ الكريمُ والسنةُ النبويةُ، كما قد انْسَلَخَتْ عن عروبةِ العهدِ الجاهليّ. فلا نجد بينها شعبًا يتحدَّثُ أبناؤه بالعربية على السليقةِ ويَقْرِضُ الشعرَ ارتجالاً دون سابقِ تَأَهُّبٍ واستعدادٍ على مثالِ العربِ الأقحاحِ العاربةِ. كما لا نجد بينها شعبًا يتحدَّثُ أبناؤه بالأسلوب المحمديّ على غِرَارِ الصحابةِ والتابعين، رضوان الله عليهم أجمعين.

إنَّ استعجامَ العربِ أسفر عن عواقِبَ خطيرةٍ شَمِلتْ جميعَ مجالاتِ حياةِ الأمَّةِ؛ فقطع في المقام الأول وشيجةَ الوحدةِ اللغوية بين القاعدة الشعبيةِ للأمة (وإن لم يُخِلْ بنظام الدواوين الرسمية وفصاحةِ الخطابِ العلمي). أما استعجامُ القاعدة الشعبية، فإنها دفعت كُلَّ مُجتَمَعٍ

من أجزاءِ الأمةِ باتجاهٍ يمنعه أنْ يشاطرَ أشقّائَه من بقية المجتمعات العربية في ثقافتها المحليةِ وطموحاتها وأعرافها وميوليها السياسيةِ، وحتى في سلوكها الدينيةِ. هذا هو الدافع الرئيسُ الذي خلق حواجزَ صَلْبَةً بين هذه الفصائل العربية ومنعتها من توحيدِ الصفوفِ والتعاونِ في مواجهةِ التحدياتِ والتهديدات.

لقد كَثُرَتْ المخاطرُ التي تُهَدِّدُ اللغةَ العربيَّةَ في أيّامِنا وتضاعفتْ إلى حدودٍ تُثِيرُ القلَقَ في نفوسِ المحبّين إلى هذه اللغة الشريفةِ، منها: استفزازُ الصُّحُفِيّين والإعْلاَميّين، وتحريفاتُهم، وأخطاؤُهُمْ، وأغلاَطُهُمْ الواردةُ في مُدَوَّناتِهم ومقالاتِهِمْ، وفي أثناءَ نقلِهم للأخبارِ... ومن هذه المخاطر أيضًا: ما يصنعُهُ رجالُ التجارةِ والصناعةِ والحِرَفِ من لافِتَاتٍ لشركاتِهم ومؤسّساتِهم ومحلاَّتِهم التجاريةِ تحمِلُ أسماءَ أجنبيةً. وما يرتكبُهُ المستخدمون لِمَوَاقِعِ التواصُلِ الاجتماعِيّ من خَبْطٍ، وخلطٍ، وعَشوائيةٍ وتهجين، يُعَدُّ بِحَدّ ذاتِهَا جنايةً على اللغة العربية. كل ذلك دوافعُ هدَّامةٌ تفتحُ ثغراتٍ للدَّخيل، وتمهّدُ السبيلَ لتمييعِ العربيةِ وصهرِها، وتُسَهّلُ انتشار العُجمةِ وطغيانَهَا.

العُجمةُ فضيحةٌ من فضائحِ العربِ، وهي وصمةُ عارٍ على ناصيةِ كلِّ عربِيٍّ يجهل الفُصحى. والذين يتعمَّدون منهم الحديثَ بالعامِّيَّةِ، إنما يخونون لغتهم، ويحاربون وحدةَ الأمَّةِ، ويرتكبون الجنايةَ على الإسلام ولا شكَّ... هذا، وأيُّ مثقَّفٍ عربِيٍّ، بل وأيُّ مُستَعرِبٍ مخلِصٍ يُتقِنِ الفُصحى ويَعتَزُّ بالاسلامِ، لاَ ينجو من هذه التُّهمةِ إلاَّ إذا تعاون مع المخلصين للدفاعِ عن لغة القرآن وإنقاذِها من طغيانِ العامِّيَّةِ، والحدِّ من انتشارِ العجمةِ.

فريد صلاح الهاشمي
Feriduddin AYDIN
13 أبريل **2024**م.

